مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة العلوم الهندسية المجلد (35) العدد (5) 2013
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Engineering Sciences Series Vol. (35) No. (5) 2013

تنمية الحرف اليدوية التقليدية والأسواق التراثية كمدخل لتعزيز السياحة الثقافية: الواقع والتحديات وآفاق التطوير في سورية

الدكتور أحمد خلف عطية*

(تاريخ الإيداع 16 / 4 / 2013. قُبِل للنشر في 17 / 6 / 2013)

∇ ملخّص ∇

تُعد السياحة من أهم القطاعات التي يعتمد عليها الدخل القومي في العديد من دول العالم. وأصبحت اليوم صناعة حقيقية وأساسية وعاملاً مهماً في التنمية الاقتصادية المستدامة. وفي كثير من الدول النامية، تُمثل الأسواق التراثية بما تحويه من محترفات لإنتاج الحرف اليدوية التقليدية شكلاً رئيسياً من أشكال التوظيف، وتأمين فرص العمل للكثير من الشباب، ويشكل في بعض هذه البلدان جزءاً هاماً من اقتصاد الصادرات.

تتميز سورية بوجود العديد من الأسواق التراثية والحرف اليدوية التقليدية التي تعبر عن ثقافة هذا البلد وتاريخه وإرثه الثقافي المتنوع. وتعد عنصراً من أهم عناصر الجذب السياحي الثقافي، ومكوناً رئيسياً للتراث الحضاري الذي يؤكد على الهوية الحضارية والثقافية، وإن المحافظة على هذه الحرف وتطويرها يعد من النشاطات المهمة والرئيسة ضمن برامج عمل التنمية السياحية، بغية تحقيق الدعم الاقتصادي وخلق فرص العمل للمجتمعات المحلية. وتملك سورية كل المقومات التي تساعد على الارتقاء بهذه الصناعة إلى مستوى العالمية.

تقوم الدراسة الحالية على افتراض أن هناك علاقة طبيعية بين الحرف اليدوية وأسواقها التراثية من جهة والسياحة من جهة أخرى، وتتجلى المنفعة المتبادلة من خلال أن دعم أحد القطاعين والترويج له يدعم القطاع الآخر. وتتناول الدراسة الحالية واقع أهم الحرف اليدوية التقليدية السورية، والأسواق التراثية في كل من مدينة دمشق وحلب ودير الزور حيث تمثل كلاً منها إقليماً جغرافياً يتميز بأنواع محددة من الحرف اليدوية. كما تناقش هذه الدراسة التحديات الراهنة التي يواجهها قطاع الحرف اليدوية في سورية، وتقدم إستراتيجية لتنمية هذا القطاع وتنشيطه لتلبية احتياجات سوق السياحة الثقافية بشكل أفضل.

الكلمات المفتاحية: السياحة الثقافية، الأسواق التراثية، الحرف اليدوية التقليدية، سورية.

* مدرّس – قسم التصميم المعماري– كلية الهندسة المعمارية – جامعة تشرين– اللاذقية– سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة العلوم الهندسية المجلد (35) العدد (5) 2013
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Engineering Sciences Series Vol. (35) No. (5) 2013

Developing Handcrafts and Traditional Markets as an Approach to Promote Cultural Tourism: Reality, Challenges and Development Ways in Syria

Dr. Ahmad Kh. Atieh*

(Received 16 / 4 / 2013. Accepted 17 / 6 / 2013)

∇ ABSTRACT ∇

Tourism is one of the most important sectors upon which the national income in many countries of the world. Tourism has become today a real industry, basic and important factor in sustainable economic development. In many developing countries, traditional markets which content the traditional handicraft production represent a major sector of employment for youth, it is an important sector of the export economy of those countries.

Syria has many traditional markets and handicrafts that reflect it's culture, history, and diverse cultural heritage. It is one of the most important tourist attractions in Syria and a key component of the cultural heritage, which emphasizes the cultural identity. Maintaining and developing these crafts are the task and the main part of the tourism programs, in order to achieve economic support and create jobs for local communities. Syria has all the ingredients that help promote this industry to a global level.

The current study is based on the assumption that there is a natural relationship between handicrafts and tourism, and that there is mutual benefit in the creation and promotion of a private to support the other. This study addresses the current realities and challenges faced the handicraft sector and traditional markets in Damascus, Aleppo and Deir Ezzor, to provide a strategy for development and revitalization of this sector and to meet the needs of the cultural tourism better.

Keywords: Cultural tourism, heritage markets, traditional handicrafts, Syria.

* **Assistant Professor, Department of Design, Faculty of Architecture, Tishreen University, Lattakia, Syria.**

مقدمة:

مما لا شك فيه أن سورية هي مهد الحضارات حيث ظهرت فيها أول أبجديه عرفها التاريخ. وهي اليوم إحدى أبرز نقاط الجذب السياحي بين دول العالم نظراً لما تحتويه من أماكن سياحية طبيعية وتاريخية، ومن أهم أنواع السياحة التي تقصد سورية اليوم هي "السياحة الثقافية" حيث الحضارات القديمة منتشرة على كامل ربوعها.

تُعتبر الصناعات اليدوية التقليدية توأم السياحة، حيث تمثل إحدى أهم مقومات الجذب السياحي، بحكم كونها من أهم الموروثات الثقافية والحضارية المرتبطة بالفنون الإنسانية والتراث الثقافي والتي تجمع بين الفن التشكيلي والثقافة والتاريخ كإرث متجدد يرافق كل عصر [1].

إن الحرف اليدوية التقليدية هي جزء من مكونات الهوية الوطنية في جانبها الثقافي، وقد أصبحت مهددة بالانقراض نتيجة التطور التكنولوجي الهائل الذي ينذر بزوال الكثير من الحرف اليدوية. وبالتالي فإن تنمية وتطوير الصناعات والحرف اليدوية، تقتضي دراسة البعد الاجتماعي والثقافي والتراثي والاقتصادي لهذه الحرف وإظهار جماليتها وقيمتها والتأكيد على دورها في إثراء الذاكرة الثقافية، كما تقتضي دراسة علاقة هذه الحرف بالعادات والتقاليد في مجتمعاتها المحلية. ويأتي ذلك في سياق دعوة لإعادة استخدام المنتجات اليدوية كحاجة حياتية، علاوة على توظيفها في المجال السياحي لزيادة الدخل الوطني، وتوفير فرص عمل للشباب [2].

إشكالية البحث:

شهدت الصناعات الحرفية اليدوية السورية خلال العقود الماضية انحساراً تدريجياً، تاركة المكان في الأسواق التراثية عرضة لغزو الصناعات الحديثة التي تعتمد الآلة والتكنولوجيا المتطورة، ليبقي القليل من تلك الصناعات الحرفية يحقق حضوراً ضعيفاً في عصر باتت فيه الآلة تنافس الإنسان وتحتلّ مكانه في كثير من المواقع.

وقد تراجعت هذه الصناعات الحرفية وتضاءلت أهمية الأسواق التراثية بشكل عام من منتصف القرن الماضي نتيجة تطور نمط الحياة اليومية، وغياب استراتيجيات الحفاظ والتطوير لهذه الحرف اليدوية.

أهمية البحث وأهدافه:

تمثل الصناعات اليدوية التقليدية الرصيد الثقافي والحضاري والإنساني. وإن الحفاظ عليها وتطويرها سيؤدي حتماً إلى المحافظة على الهوية الثقافية والحضارية السورية.

تكمن أهمية البحث الحالي في تناوله لواقع الحرف اليدوية التقليدية والأسواق التراثية في سورية، ودورها في تنمية السياحة الثقافية. كما يهدف إلى رصد واقع الحرف اليدوية التقليدية والأسواق التراثية، والمشكلات التي تعاني منها في كل من دمشق وحلب و دير الزور. وتقديم رؤية لتطوير هذه الحرف.

طرائق البحث ومواده:

تم إتباع المنهجين الاستقرائي والتحليلي في البحث الحالي. هذا وتنقسم الدراسة إلى أربعة أجزاء، هي:

1. تناول مفهوم وأنواع السياحة، ودور السياحة في عمليات التنمية.
2. استعراض واقع أهم الحرف اليدوية التقليدية في سورية، واهم التحديات التي تواجهها.
3. تسليط الضوء على واقع أهم الأسواق التقليدية في كل من دمشق وحلب ودير الزور.
4. النتائج والمناقشة: ويتم من خلالها اقتراح إستراتيجية لتطوير الصناعات الحرفية اليدوية.

1- السياحة (المفهوم، الأنواع، وعلاقتها بالثقافة والتنمية الاقتصادية)

1-1- المفهوم

السياحة هي نشاط السفر بهدف الترفيه، وتوفير الخدمات المتعلقة لهذا النشاط. والسائح هو ذلك الشخص الذي يقوم بالانتقال لغرض السياحة لمسافة ثمانين كيلومتراً على الأقل من مسكنه. وذلك حسب تعريف منظمة السياحة العالمية[1]، التابعة لهيئة الأمم المتحدة.

تطورت السياحة عالمياً وامتدت إلى ميادين متنوعة وشملت العديد من الأنشطة الإنسانية ماضياً وحاضراً ومستقبلاً. واهتمت منظمة "اليونسكو" بشكل خاص بالسياحة الثقافية من خلال إطار وضع السياسات الثقافية الوطنية، ليس فقط لأنها تساهم في التنمية الاقتصادية والاجتماعية وإعادة إحياء الصناعات الحرفية والمهن التقليدية، بل لأنها تؤمن فرص عمل للشباب وتحد من الهجرة، ولأنها تعتبر ميداناً ملائماً لحوار الحضارات والثقافات، وتحافظ على معالم وممارسات ثقافية مهددة بالضياع.

ضمن هذه المفاهيم صدر أول اعتراف رسمي بالسياحة الثقافية عام 1963م، عن المجلس الاقتصادي الاجتماعي في الأمم المتحدة لدعم "مفهوم الصداقة والتفاهم بين الشعوب". وفي العام 1966م، أعلنت منظمة اليونسكو "أن السياحة الثقافية تساهم في تدعيم مسيرة السلام". وفي العام 1976م، تم تبني المفهوم الأولى للثقافة السياحية في "بروكسل" وأهم بنودها،"احترام التراث الثقافي العالمي والطبيعي الذي يجب أن يتقدم على أي اعتبار آخر على الصعد الاجتماعية السياحية والاقتصادية" [3].

1-2- أنماط وأنواع السياحة

أ- السياحة الدولية: وهو النشاط السياحي الذي يتم من خلال الانتقال أو السفر من حدود دولة لأخرى.

ب- السياحة الداخلية: وهو النشاط السياحي الذي يقوم به مواطنو الدولة لمدنها المختلفة التي يوجد فيها أماكن جذب سياحي أو معالم تستحق الزيارة. لكن هذا المفهوم -مفهوم السياحة الداخلية- يختلف عند بعض الدول، ففي أمريكا وكندا تُعرف السياحة الداخلية حسب مسافة الرحلة التي يقطعها المسافر، فإذا كانت 100 كم أو أكثر بعيداً عن مقر إقامته يعتبر سائحاً داخلياً، أما في بلغاريا وألمانيا فيعرفون السائح الداخلي على أنه المواطن الذي يقضى خمسة أيام بعيداً عن محل إقامته. وفيما يأتي نورد إيجازاً لأهم أنواع السياحة [4]:

1- **السياحة الدينية:** السفر من دولة لأخرى أو الانتقال داخل حدود دولة بعينها لزيارة الأماكن المقدسة، أو السفر من أجل الدعوة. وتهتم بالجانب الروحي للإنسان فهي مزيج من التأمل الديني والثقافي.

2- **السياحة العلاجية والاستشفائية:** السفر بقصد العلاج من أمراض الجسد مع الترويح عن النفس. ويعتمد هذا النوع على توفر المراكز والمستشفيات الحديثة بما فيها من تجهيزات طبية وكوادر بشرية تتمتع بالكفاءة.

3- **السياحة الاجتماعية:** ويطلق عليها أيضاً السياحة الشعبية أو سياحة الإجازات، وأصبحت الآن نشطة في كثير من دول العالم حيث يتم تنظيم الرحلات السياحية الجماعية بأسعار مخفضة وتسهيلات متعددة.

4- **سياحة المعارض:** وتشمل جميع أنواع المعارض الصناعية والتجارية والفنية التشكيلية ومعارض الكتاب.

---

[1] **منظمة السياحة العالمية (World Tourism Organization) :هي منظمة تابعة للأمم المتحدة تهتم بشؤون الدول من الناحية السياحية، وتصدر الإحصائيات المتعلقة بالطلب والعرض السياحي على مستوى العالم، ومقرها في مدريد.**

5- **سياحة المؤتمرات:** ارتبط هذا النوع بالتطورات الكبيرة في العلاقات الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية بين معظم دول العالم ونجدها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بسياحة المعارض.

6- **سياحة السباقات والمهرجانات:** وتهدف هذه السياحة إلى مشاهدة سباقات السيارات والدراجات والمهرجانات السينمائية أو المشاركة بها. وغالباً ما ترتبط بها احتفالات كبيرة للأزياء والفنون الشعبية.

7- **سياحة السفاري والمغامرات:** تتم عبر الصحارى وتتنوع أنواعها وأهدافها فبعضها يتجه إلى السلاسل الجبلية، والبعض الآخر يتجه إلى زيارة الوديان وعيون الماء، وبعضها يكون من أجل الصيد البري.

8- **السياحة الرياضية:** وهي السفر من مكان لآخر داخل الدولة أو خارجها من أجل المشاركة في بعض الدورات والبطولات أو من أجل الاستمتاع بمشاهدة الأنشطة الرياضية المختلفة، أو المشاركة بها.

9- **السياحة الترفيهية:** تكون السياحة الترفيهية بغرض الاستمتاع والترفيه عن النفس. وهي من أقدم أنواع السياحة وأكثرها انتشاراً، حيث وصلت نسبة السياحة الدولية إلى 80%. وتعتبر دول حوض البحر الأبيض المتوسط من أكثر المناطق جذباً لحركة السياحة الترفيهية لما تتمتع به من مقومات كثيرة كاعتدال المناخ بالإضافة إلى الشواطئ الرملية والطبيعة الخلابة.

10- **السياحة الثقافية (السياحة الأثرية والتاريخية):** يتم التركيز في النوع من السياحة على زيارة دول تتمتع بمقومات تاريخية وحضارية. فالباعث الأساسي من السياحة الثقافية هو زيارة المواقع الأثرية والمعالم التاريخية والمتاحف، والتعرف على الصناعات التقليدية أو أي شكل من أشكال التعبير الفني وحضور بعض الفعاليات الثقافية. إن السياحة الثقافية التي كانت تعتبر على هامش برنامج السياحة العالمي، قد أصبحت اليوم عاملاً هاماً بل أساسياً بفضل الدور الاقتصادي الذي تلعبه [5].

1-3- السياحة الثقافية والتنمية الاقتصادية

في السبعينات كانت نسبة السياحة الثقافية تبلغ حوالي 5% من السياحة بشكل عام. تشير الدراسات الأخيرة إلى أن نسبة السياحة الثقافية اليوم تبلغ ما بين 12-15% وأحياناً حتى 20% في المناطق الأكثر غنى بالتراث [5].

أصبحت السياحة صناعةً رئيسية على النطاق العالمي، ومن المتوقع أن تنمو نمواً متواصلاً؛ فقد زاد عدد السيَّاح على المستوى الدولي إلى ثلاثة أمثاله خلال العقدين الماضيين، وارتفعت حصيلة السياحة الدولية من 22 مليار دولار تقريباً في السبعينيَّات، إلى حوالي 300 مليار دولار في التسعينيات، أنظر جدول 1.

جدول رقم (2): الدخل الاقتصادي السياحة العالمية المصدر: [6] [7]

الترتيب	الدولة	منطقة	المدخولات السياحيّة	المدخولات السياحيّة
1	الولايات المتحدة	أمريكا	$85.7 مليار	$96.7 مليار
2	إسبانيا	أوروبا	$51.1 مليار	$57.8 مليار
3	فرنسا	أوروبا	$46.3 مليار	$54.2 مليار
4	إيطاليا	أوروبا	$38.1 مليار	$42.7 مليار
5	الصين	آسيا	$33,9 مليار	$41.9 مليار
6	المملكة	أوروبا	$33.7 مليار	$37.6 مليار

7	ألمانيا	أوروبا	$32.8 مليار	$36.0 مليار
8	أستراليا	أوقانيسيا	$17.8 مليار	$22.2 مليار
9	النمسا	أوروبا	$16.6 مليار	$18.9 مليار
10	تركيا	آسيا	$16.9 مليار	$18.5 مليار

تمثل الدول الغنية كالولايات المتحدة الأمريكية ودول أوربا المصدر الرئيسي للسياح في العالم، كما تعتبر هذه الدول بالإضافة إلى بعض الدول التي تمتلك تراثاً هائلاً مثل مصر الأكثر مقصداً للسياحة، لاحظ جدول 2.

جدول رقم (2): الدول السياحية الأكثر زيارة المصدر: [6] [7]

الترتيب	الدولة	منطقة السوق	أعداد السيّاح الزائرين	أعداد السيّاح الزائرين
1	مصر	أفريقيا	79.1 مليون	81.9 مليون
2	فرنسا	أوروبا	58.5مليون	59.2 مليون
3	الولايات	أمريكا	51.1 مليون	56.0 مليون
4	الصين	آسيا	49.6 مليون	54.7 مليون
5	إيطاليا	أوروبا	41.1 مليون	43.7 مليون
6	المملكة	أوروبا	30.1 مليون	30.7 مليون
7	ألمانيا	أوروبا	23.6 مليون	24.4 مليون
8	أوكرانيا	أوروبا	18.9 مليون	23.1 مليون
9	تركيا	أوروبا	18.9 مليون	22.2 مليون
10	المكسيك	أمريكا	21.4 مليون	21.4 مليون

2- الحرف اليدوية التقليدية

2-1- لمحة تاريخية عن الحرف اليدوية التقليدية

قبل 9000 سنة عرفت سورية صناعة الفخار والزجاج وتعدين المعادن وصقلها وسكبها، وعرفت الصناعات المعدنية، كالأدوات والأواني والأسلحة التقليدية اليدوية البسيطة وغيرها، كما عرفت صناعة الحلي والمجوهرات والمصوغات الثمينة، وتطورت صناعة الحياكة والغزل والنسيج واشتهرت بنسيج "البروكار الشامي" و"الدامسكو" الذي منح اسمه لمدينة دمشق أقدم عاصمة مأهولة في التاريخ، حيث ربى الحرفيين دودة القز وبرعوا بحياكة الحرير الطبيعي، كما تميزوا بحرفة البناء وتقطيع الحجارة.

وقد انتشرت حرف أهل الشام إلى كافة بقاع الأرض، حيث يذكر التاريخ أن سفن الفينيقيين الأولى عبرت البحار حاملة معها أبرع الحرفيين السوريين، كما فعلت الملكة الشامية "اليسار" يوم غادرت مدينة صور وبصحبتها 50 سفينة، حملت على متنها خيرة الحرفيين السوريين والعمال المهرة قاصدة "قرطاج" لتبني حضارتها هناك [8].

2-2- البعد الثقافي والتنموي للحرف اليدوية التقليدية، وعلاقتها بالسياحة الثقافية:

إن الحديث عن الحرف اليدوية التقليدية والسياحة وعلاقتهما بالثقافة يدعونا أولاً وقبل كل شيء، للوقوف على مفهوم الثقافة، وفقاً للجانب الذي نركز عليه من ظاهرة الثقافة بمختلف تعريفاتها. فالثقافة كنسق اجتماعي، تشمل القيم

والمعتقدات والمعارف والفنون والعادات والممارسات الاجتماعية والأنماط المعيشية. وصلة هذه المقومات بالحرف التقليدية والسياحة لا تحتاج إلى دليل. والثقافة بوصفها انتماء، تعبر عن التراث والهوية، وطابع الحياة اليومية للجماعة الثقافية. وتعد الحرف التقليدية من أهم العناصر الفعالة التي تستطيع الحفاظ على هذا التراث.

إن الاهتمام بتطوير ميدان الصناعات والحرف اليدوية سوف يساهم في معالجة بعض المشاكل الاقتصادية، وتحريك وتنشيط العجلة الثقافية والسياحية للبلد، وتوفير فرص العمل والحد من مشكلة البطالة، خصوصاً التركيز والاهتمام لإحياء بعض القطاعات الحرفية [9].

3- واقع أهم الحرف اليدوية التقليدية في سورية وأهم التحديات التي تواجهها [1] [10]

3-1- صناعة النحاسيات

تكاد لا تخلو المدن القديمة في سورية من وجود سوق للنحاسين في أسواقها التراثية. فقد اشتهرت المدن السورية بتصنيع الفوانيس والثريات ومستلزمات المطبخ العربي من صحون وقدور وكؤوس وما إلى ذلك من مادة النحاس التي تفنن في صناعتها أصحاب هذه المهنة، ولا يزال عدد غير قليل من أبناء المدن السورية يمارس هذه المهنة حتى اليوم نظراً لإقبال السياح على شراء نماذج من منتجاتهم النحاسية التي نقشت عليها أجمل الرسوم بواسطة أزميل صغير، شكل (1). ومن الأساليب التي يعتمدها صناع النحاسيات تطعيم الأواني النحاسية بالذهب أو بالفضة. حيث تُصنع القطع بطرق عدة منها الدق والحفر، والحفر والتنزيل، والمخرم والمفرغ.

3-2- تبييض الأواني النحاسية

الغاية من تبييض النحاسيات، وجود مادة سامة في النحاس فيقوم المبيض بطلائه بمادة القصدير حتى يمنع صعود هذا المادة السامة إلى سطح الوعاء النحاسي ويظل الوعاء آمناً وسليماً للاستخدام المنزلي. العمل في مهنة التبييض صعب ويحتاج لمهارة وتحمل درجات الحرارة وروائح مواد التبييض الكريهة والمؤذية، شكل (2). لكن ومع انحسار اعتماد السوريين على أواني المنزل النحاسية وتخلي الحرفيين الكبار عن مهنة التبييض لما تسببه من إجهاد لهم، انقرضت هذه المهنة في أواخر القرن العشرين وبدايات القرن الحالي.

شكل (1): صناعة النحاسيات

شكل (2): تبييض الأواني النحاسية

3-3- صناعة السيوف الدمشقية

صناعة تطريق الحديد حرفة متوارثة عن الأجداد منذ قبل الإسلام في دمشق. والسيف الدمشقي من أندر التحف، ويتميز السيف الدمشقي بأنه ممهور برمز على نصله باسم "أسد الله الدمشقي" وهو شديد الصلابة، ويوجد على نصله أمواج مجدولة ونصله مصنوع من شفرات لماعة ذات لون رمادي أشهب مائل للزرقة، ويتم صنع الغمد من الحديد وينزل عليه أسلاك مذهبة وفضية ضمن نقوش إسلامية جميلة. وقد عرف الصليبيون هذه الصناعات ونسبوها إلى دمشق كما نقلها العرب إلى الأندلس فنسبت إلى دمشق، ويقال الآن لصناعات تنزيل الذهب والفضة في الفولاذ (دامسكيناج ودامسكينزي)، شكل رقم (3).

ويرى الباحث أن "السيف الدمشقي" قد شكّل مصدراً لاستلهام الفنان عند تصميم منحوتته العملاقة في ساحة الأمويين في قلب العاصمة دمشق لتضفي روعة على هذا الفراغ العمراني، كما يظهر في الشكل رقم (4).

شكل (3): توارث صناعة السيف الدمشقي

شكل (4): منحوتة السيف الدمشقي في ساحة الأمويين

3-4- صناعة النسيج اليدوي (البروكار والدامسكو والأغباني والصايا)

تميزت سورية منذ القديم بصناعة النسيج اليدوي، وازدهرت فيها بشكل خاص صناعة الحرير. وأنتج الكتان والقطن والصوف والشعر والحرير بسبب وفرة المواد الخام ذات المصدر النباتي والحيواني. وعندما نذكر كلمة "بروكار" أو "دامسكو" مثلاً، يتبادر إلى الأذهان مباشرة اسم دمشق وسورية أي أن هذه الصناعات اليدوية الدقيقة أصبحت جزءاً مميزاً لتراث هذه البلاد، شكل رقم (5). وبما أننا في عصر تميز بالسرعة التي لا تتلاءم مطلقاً مع دقة الصناعات اليدوية التي تعتمد على العنصر البشري وعلى فنه وإبداعه الإنساني، فإن هذه الصناعات اليدوية قد بدأت تتلاشى حيث حلّت الآلة محل اليد العاملة.

وتجدر الإشارة إلى أن ملكة بريطانيا إليزابيث الثانية ارتدت سنة 1954م، ثوباً عربياً من "البروكار" السوري اسمه "العاشق والمعشوق"، قامت الحكومة السورية آنذاك بإهدائه لبريطانيا بمناسبة زفاف الملكة [11]، شكل رقم (6).

شكل (5): بعض نقشات "الدامسكو"

شكل (6): ملكة بريطانيا ترتدي ثوب الزفاف "العاشق والمعشوق"

3-5- صناعة البسط اليدوية

عرفت مدينة دمشق ومدن سورية أخرى كحلب وحماة حرفة صناعة البسط اليدوية منذ مئات السنين، حيث عمل بهذه المهنة عشرات الحرفيين توارثوها عن الأجداد، كما ورثوا معها الأنوال التي كانوا يستخدمونها لحياكة البسط، ولكن في السنوات الأخيرة اتجهت هذه الصناعة إلى الانقراض بسبب مزاحمة العمل الآلي لها. ويعزى ارتفاع ثمن المنتجات إلى الوقت الطويل الذي يستغرقه الحرفي في إنتاجها، فالمتر المربع الواحد من البساط الملون والمزخرف يحتاج إلى يوم عمل كامل، في حين تنتج الآلة مئات الأمتار، ولهذا السبب تخلى الكثير من الدمشقيين عن هذه المهنة عن أنوالهم اليدوية، ولم يبق في دمشق كلها سوى عدة أشخاص يعملون بها. ويستخدم نول يدوي يتألف من السدي واللحمة، وغالباً ما يستخدم شعر الماعز صوف الخروف حيث يتم صبغه وتغيير ألوانه تزيينه بزخارف مستوحاة من التراث أو برسومات معاصرة، شكل رقم (7). والألوان المستخدمة حالياً في هذه الصناعة هي أصباغ كيماوية، بينما كانت سابقاً تستخرج الألوان من النباتات أو الحيوانات أو الحشرات.

شكل (7): النول اليدوي قديماً وحديثاً مهنة تراثية سورية بارزة في معظم المحافظات

3-6- العجمي: فن الزخارف على الخشب

هو فن الزخارف الشرقية الهندسية والنباتية التي تنفذ على الأخشاب لتغطي الجدران والأبواب والأسقف في القصور والبيوت الشامية، شكل رقم (8). ويطلق المؤرخون على هذا الفن الدمشقي العريق اسم "العجمي" أو فن الزخارف على الخشب، ويعيد هؤلاء هذا الفن والتسمية إلى عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك الذي استقدم الحرفيين والفنيين من بلاد العجم والعراق لزخرفة الجامع الأموي في دمشق، مما جعل حرفيي دمشق يستفيدون منهم في اقتباس أسرار الزخرفة على الخشب ويطورونها.

يتميز العجمي كفن زخرفي بالإبهار البصري من خلال تنوع الألوان وشدة الاعتناء بها، بحيث تجذب انتباه الشخص الداخل إلى غنى تفاصيل الزخارف والرسومات. والعجمي هي مهنة تخصصت بها دمشق فقط ولم تعرفها المحافظات السورية الأخرى، وقد مرت في القرن العشرين المنصرم بحالة من الركود، حتى كادت تنقرض من خارطة الحرف الدمشقية اليدوية، ثم عادت الروح إليها مع بداية الألفية الثالثة. وتعزى أسباب العودة إلى انتشار أعمال ترميم الحمامات والبيوت الدمشقية وتحويل معظمها إلى منشآت سياحية، من فنادق ومطاعم تراثية، وقد حرص أصحابها على إعادة الزخارف إلى جدرانها وأسقفها، فكان عليهم العودة إلى فن العجمي.

3-7- الموزاييك اليدوي

يعتبر فن الموزاييك اليدوي من أقدم الحرف السورية، والدمشقية بصورة خاصة. ويقال إنه "عميد" جميع الفنون اليدوية، التي تعتمد على زخرفة الخشب لإنتاج أعمال متنوعة للاستخدام والزينة. ويقول الباحثون إن الموزاييك ابتكار دمشقي انتشر قبل 500 عام، من خلال عدد من الأسر الدمشقية، التي عملت في مجال الحرف اليدوية. الموزاييك من أجمل الفنون الدمشقية وأقدمها، وهو يعتمد بشكل أساسي على تطعيم الخشب وتحويله إلى أشكال فنية من خلال رسوم وأشكال هندسية مثل المثمّن والمربّع والمسدّس والمثلّث، وهناك الزخرفة بالخطوط العربية، شكل رقم (9). وإن التطوير في النماذج وتنوعها مهم في هذه الحرفة اليدوية ساعدها على الاستمرار وتحدي الانقراض، كما حصل لبعض الحرف اليدوية الأخرى. كما ظهرت في السنوات العشر الأخيرة حرفة أخرى ذات صلة هي ترميم منتجات الموزاييك. ولقد تخصص بها عدد من الحرفيين، وباتت مهنة ترميم الموزاييك القديمة مطلوبة جداً في البيوت الشامية القديمة التي يتم تحويلها إلى فنادق أو مطاعم [12].

شكل (8): العجمي فن الزخارف على الخشب في السقف والجدران

شكل (9): حرفة الموزاييك أو "التصديف"

3-8- صناعة الزجاج (القزاز)

اخترعها الفينيقيون منذ 2500 ق.م، ولازالت حتى وقت قريب من أبرز الصناعات القديمة في سورية. وتتميز هذه الصناعة بالدقة والبراعة في التلوين أو التزجيج، بالإضافة إلى تنوع أشكالها وجمال زخرفتها، وتعدد ألوانها. وقد برع الحرفيون في صناعة الزجاج اليدوي ونفخه وتكييفه قبالة أفران الطين، شكل رقم (10). كانت دمشق حتى النصف الأول من القرن العشرين المنصرم تضم كثيراً من هذه الأفران. لكن مهنة "القزازين" بدأت تتقلص وقد غابت هذه الصناعة ولم يبق من أفرانها سوى اثنان.

عرفت بلدة أرمناز في ريف إدلب بعدد من الصناعات اليدوية التقليدية وأهمها صناعة الفخار والزجاج، وهذا ما جعلها الموطن الأصلي لهذه الصناعة التي لا تزال مستمرة إلى وقتنا الحالي كمهنة يتوارثها الأبناء عن الآباء والأجداد. وهنا لا بد من القول إن الزجاج الأرمنازي معروف ومشهور منذ آلاف السنين تتوارثه الأجيال وهناك مقولة معروفة ومشهورة للخليفة الإسلامي هارون الرشيد عندما قدمت له هدية زجاجية من الصين قال: "وهل هو كرقة زجاج الأرمنازي" [13].

3-9- صناعة القاشاني اليدوي

القاشاني فن زخرفي خزفي تراثي ينسب إلى مدينة "كاشان" الشهيرة في إيران، واستخدم فن القاشاني في العصر المملوكي، ولاحقا طوره العثمانيون واستخدم [كديكورات] في البيوت القديمة. دخل هذا الفن إلى دمشق قبل 600 سنة، ولذا كانت كل الأماكن الذي وجد فيها القاشاني تأخذ نمطاً وروحاً واحدة باستثناء بعض الأماكن التي تلاحظ، وبشكل واضح، اختلافات جوهرية فيها. كما عمل حرفيون دمشقيون قبل 300 سنة على ابتكار طريقة جديدة في تصنيع القاشاني خاصة في دمشق. وغالبا ما تكون الرسوم والزخارف من التراث الدمشقي وبذلك يتميز القاشاني الدمشقي عن التركي. لكن هذا الفن تراجع خلال القرن العشرين المنصرم كغيره من الفنون والمهن الدمشقية اليدوية، قبل أن يعود إلى الانتعاش في السنوات الأخيرة، شكل رقم (11).

شكل (10): صناعة الأواني الزجاجية بواسطة النفخ أمام الفرن

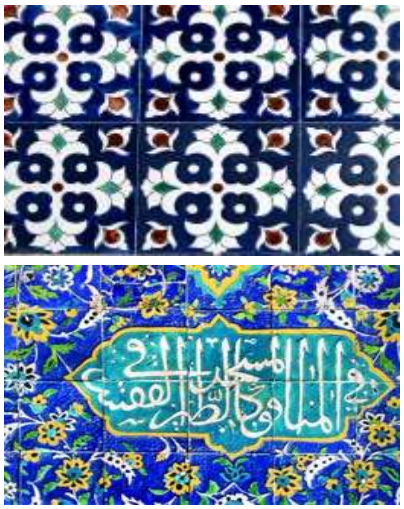

شكل (11): القاشاني الدمشقي في الجدران

3-10- صناعة الفسيفساء اليدوي

يعتبر فن الفسيفساء أحد أقدم الفنون التزيينية في سورية، إذ تمتد جذوره بحسب الاكتشافات الحديثة إلى الألف الثالث قبل الميلاد. وقد أثرت كل الحضارات التي تتابعت على هذه المنطقة تأثيراً كبيراً في الفسيفساء حيث أضافت إليها أشكالاً وأنماطاً مختلفة أكسبتها شهرة عالمية واسعة، خصوصا بعد أن اكتشف علماء الآثار عدداً كبيراً من لوحات الفسيفساء الرائعة في مدن سورية قديمة مثل ماري وشهبا وتدمر وحلب وقد نقل بعض منها إلى المتاحف المحلية بعد ترميمها لتبقى شاهدة على عظمة الفنون والحضارة في سورية، شكل رقم (12).

شكل (12): لوحة فسيفساء (تيثيس ربة البحر) المحاطة بالحيوانات البحرية (يمين)، وأواني يدوية حديثة (يسار).

3-11- فن "الأبلق"

"الأبلق" مصطلح لغوي عربي من كلمة "بلق"، التي تعني السواد والبياض في اللون. ولم يعد يعتمد على اللونين الأبيض والأسود فحسب، بل صار "الأبلق" تسمية تطلق على نسق من الصفوف الحجرية الأفقية حيث تتناوب الألوان التي باتت تضم، بجانب اللونين الأبيض والأسود، الأحمر والأصفر والترابي أو البني وغير ذلك.

انطلق هذا الفن المعماري من دمشق وانتشر لاحقاً في غيرها من المدن، وكان أول بناء يشاد به في دمشق هو "قصر الأبلق"، الذي بناه القائد المملوكي "الظاهر بيبرس" على ضفاف نهر بردى، مكان "التكية السليمانية" حالياً، ومن ثم انتشر هذا النمط المعماري في الأبنية اللاحقة حتى أوائل القرن العشرين المنصرم ونهاية العصر العثماني. وما زالت أبنيته القائمة شاهداً على جمالياته ومهارات البناء به، ومنها خان أسعد باشا في سوق البزورية بدمشق القديمة، وجوامع قديمة كثيرة، منها جامع سنان باشا، ومبان أخرى مثل المدارس، وأشهرها المدرسة الجقمقية، والحمامات كحمام التيروزي وغيره [14].

شكل (13): نماذج مباني متنوعة لاستخدام فن "الأبلق" في العمارة السورية القديمة

وهناك الكثير من الحرف اليدوية السورية المميزة والتي لا يتسع البحث لذكرها، ومنها العطارون وصناعة الصابون الغار/الصابون الحلبي، وصناعة العطارة، وصناعة الأحذية التقليدية، وصناعة الفروات والجلود والملابس العربية التقليدية، وغيرها الكثير من الصناعات التي لا تزال تلعب دوراً هاماً في الحياة الاقتصادية.

4- الأسواق التراثية ودورها في الحفاظ على الصناعات اليدوية التقليدية

كانت الأسواق العربية قديماً ملتقى الناس من جميع الطبقات، حتى أن العرب في جاهليتهم عُرفوا بأسواقهم التي كانت ساحات للشعر والخطابة. واستمرت هذه الأسواق تؤدي دورها هذا التفاعلي المميز بعد الإسلام وخروج العرب من شبه الجزيرة وتوسعهم في البلدان المجاورة التي أوجدوا فيها أسواقا مماثلة لأسواقهم. ومع قيام الدولة الإسلامية أدخلت على الأسواق تنظيمات مهمة أبرزها كان نظام الحسبة.

وخلال العقود الماضية أدركت بعض المدن العربية قيمة هذه الأسواق التراثية والحرف اليدوية التقليدية فيها، فأعادت تأهيلها كما فعلت دمشق بسوق الحميدية والأسواق الأخرى الملاصقة، والتي أعيد ترميمها والحفاظ عليها. ويمكن أن نذكر أهم الملامح المشتركة للأسواق التراثية في المدن العربية القديمة:

1. التخصص ضمن السوق الواحد. فلكل سلعة سوق مختص بها، وله نفس التسمية في معظم المدن.
2. التسقيف. معظم هذه الأسواق مسقوفة وتتفاوت درجة الإضاءة حسب نوع المنتجات التي يبيعها السوق.
3. تنتشر في هذه الأسواق مرافق الخدمات القديمة كالأسبلة والخانات والحمامات والمساجد.
4. تحتوي الأسواق على المحترفات لممارسة المهن اليدوية والحرف التراثية.
5. تعرضت الأسواق للتلف والإهمال بنسب متفاوتة وقد أزيلت بشكل كامل أو جزئي في بعض الأحيان.
6. التغير الوظيفي. تمثل في اختفاء بعض الحرف اليدوية وظهور استخدامات تتنافى مع الطابع التاريخي.

4-1- الأسواق التراثية في سورية

1- الأسواق التراثية في مدينة دمشق

سوق الحميدية: يعود للعهد الآرامي ويعتبر من أشهر أسواق مدينة دمشق. ذكره "بولص" باسم الشارع الطويل. أما شكله الحالي فقد بني في عهد السلطان عبد الحميد الأول عام 1780م، وقد أخذ اسمه "الحميدية" نسبة إلى ذلك السلطان العثماني. يخترق المدينة القديمة من باب السعادة القديم على جنوبي القلعة وحتى الجامع الأموي يبلغ طوله 600 متر وعرضه 15 متراً، وارتفاعه 8 أمتار. وتصطف على جانبية المحلات التجارية على طابقين، وتتفرع منه أسواق كثيرة منها: سوق السروجية، سوق البزورية، سوق المناخلية، سوق القباقبية.

ينتهي سوق الحميدية عند بوابة معبد "جوبيتر" (وهي بقايا لمعبد وثني أغريقي بقي منه أعمدته الرخامية المرمرية المزينة بتيجان مزخرفة من الرخام وبوابة أثرية، ويتصل بساحة يعتقد أنها كانت فناء للمعبد المذكور)، ومنه إلى الساحة أمام الجامع الأموي في قلب المدينة القديمة، شكل رقم (14). والسوق مُغطى بسقف معدني، وتتم إضاءة السوق عبر كوى صغيرة في جسم القبوة المعدنية المغطية للسوق [15]، شكل رقم (15).

شكل (14): بقايا معبد "جوبيتر" نهاية سوق الحميدية

شكل (15): سوق الحميدية بدمشق

سوق مدحت باشا: أنشأ هذا السوق والي دمشق العثماني "مدحت باشا" عام 1778م، ويقع جنوب سوق الحميدية وموازياً له. وتُباع فيه الأقمشة الحريرية والعباءات والكوفيات و(العقالات). وتوجد على جانبه خانات عديدة عثمانية أصبح كل منها سوقاً صغيراً، ويضم ورشات ومحلات بيع التحف النحاسية المزخرفة بخيوط الفضة، وفي نهاية السوق يوجد عدد من الكنائس التي تعود للفترة البيزنطية، أهمها كنيسة "حنانيا" [15]، شكل رقم (16و17).

شكل (16): سوق مدحت باشا في دمشق

شكل (17): مخطط لأهم الأسواق التراثية والسياحية في دمشق القديمة

3- الأسواق التراثية في مدينة حلب

تعود أسواق حلب إلى القرن الرابع قبل الميلاد حيث أقيمت المحلات التجارية على طرفي الشارع المستقيم الممتد بين القلعة وباب انطاكية حالياً، وقد أخذت الأسواق شكلها الحالي مطلع الحكم العثماني ويسميها الحلبيون بالمُدينة، وتعتبر أسواق حلب من أجمل أسواق مدن الشرق العربي لما تمتاز به من طابع عمراني جميل، و يبلغ تعداد أسواقها 37 سوق ومجموع أطوال هذه الأسواق على الجانبين 15 كم ومساحتها 16 هكتار. ويعتبر "خان الشونة من أهم الأسواق التراثية وأشهرها في مدينة حلب والتي تعنى بالحرف اليدوية.

خان الشونة (سوق المهن اليدوية): من أهم المعالم السياحية في حلب. يقع الخان جنوب غرب قلعة حلب، وشمال جامع الخسروية وكان الخان من أوقافه. وقد بني هذا السوق في عهد والي حلب "خسرو باشا" سنة (955هـ/1548م)، واستخدم في السابق مستودعاً للحبوب والغلال و"الشونة"، "الشونة" هو قشر القمح والشعير وباقي العلف، حيث كان يتم تخزين "الشونة" في الخان. ومنها أخذ السوق اسمه [16].

عندما تعرضت حلب لزلزال مدّمر سنة (1236هـ/1821م) تضرر الخان بشكل كبير، وأغلق حتى بداية القرن التاسع عشر، حين وضعت الدولة خطة لاستصلاح العقارات المتضررة من جراء الزلزال، فسُنَّ قانون دعي بقانون "الإجارتين"، ويقضي بأن كل شخص يقوم باستصلاح عقار مهدم من جراء الزلزال يصبح في ملكيته، وقد استغل القنصل الإيطالي "بول ماركوبولي" هذا القانون، وعمد إلى ترميم السوق جزئياً، وأصبح في ملكيته.

يتألف الخان من قيساريتين متعامدتين الأولى تفتح باتجاه شمال جنوب، والثانية باتجاه الشرق، وتتوزع الدكاكين على طرفي هاتين القيساريتين، وتتميز أروقة السوق بأقواسها المنتظمة، وللسوق فناء داخلي واسع تزيد مساحته على (750م^2) تتوسطه بركة ماء، وهناك تيراس ذو إطلالة رائعة على قلعة حلب، وعلى المدرسة الخسروية.

ويختلف خان الشونة عن باقي خانات مدينة حلب، إذ إنه يتألف من طابق واحد، وسوقين متعامدين، وفناء داخلي، بينما الخانات الأخرى تتألف من طابقين، يستخدم الطابق الأول للتجارة، وإسطبلاً للدواب بينما يستخدم الطابق الثاني منزلاً للإقامة؛ مما يدل على أن اسم خان أطلق خطأ على هذا السوق؛ وذلك لكونه تحول إلى مستودع في بعض مراحله، أسوة ببقية خانات المدينة، على الرغم من أنه سوق تجاري منذ تأسيسه.

تم استملاك الخان من قبل وزارة الثقافة عام 1982م، التي بدورها تنازلت عنه لوزارة السياحة، فباشرت بترميمه، وتحويله إلى سوق للمهن اليدوية، وقد روعي في الترميم المحافظة على شكل الخان، ونسيجه المعماري، ووظيفته كسوق تجاري على طرازه القديم نفسه من حيث البناء والزخرفة والتزيينات، وتوزيع الإنارة، وطريقة زراعة الفناء الداخلي، وأبواب المحلات، ورسوم الأرضيات، و"الفوانيس النحاسية" الموزعة بانسجام وتناغم جميلين، شكل رقم (18). إضافة إلى الزخرفة الإسلامية على الخشبيات والسجاد اليدوي ذي النقوش الجميلة وقد وضع الخان في الاستثمار وأصبح سوقاً للمهن اليدوية منذ عام 1990م.

ويحوي السوق الذي يمكن دخوله من ثلاثة أبواب، 49 مهنة يدوية مستقلة، منها النول اليدوي والخيزران والفسيفساء والفخار والزجاج والنحاس كمهنة الحفر على النحاس، النول اليدوي، صناعة الفخار، الزجاج، التطريز وصناعة المئزر الحلبي وغيرها. وفي إحدى زوايا الخان يبرز أكبر إبريقين في العالم حيث يؤكد تجار الخان أنّ هذين الإبريقين من أطول الأباريق في العالم ويُظهران دقة الحرفيين وصنعتهم التي تميزهم عن باقي حرفي العالم، ويؤكد احدهم أنّ هذين الإبريقين تم تصنيعهما بالكامل عن طريق الحفر والنقش بشكل يدوي حيث يبلغ طولهما خمسة أمتار وبقطر متر ونصف ويقسم الإبريق إلى ثلاثة أقسام [16]، شكل رقم (19).

شكل (18): القيسارية الرئيسية (شرق–غرب) في خان الشونة بحلب

شكل (19): أطوال أباريق العالم في خان الشونة

4- دير الزور وأسواقها التراثية

قام "دير العتيق" على تل يتألف من تراكم عدة طبقات أثرية على الجهة اليمنى لنهر الفرات. ويعود تاريخ المدينة كما يذكر المؤرخون إلى زمن بعيد. وعندما شكل العثمانيون التشكيلات الإدارية الثانية عام 1864م، فك ارتباط حلب بالدير وربطت بالآستانة مباشرة، وأضافوا كلمة "الزور" إلى لفظة الدير فأصبح اسم المدينة دير الزور.

توسعت المدينة فبُنيت الأسواق عام (1282هـ/1865م)، في عهد "خليل بك الأورفلي" قائم مقام دير الزور حيث استقدم بعض أصحاب المهن والحرف اليدوية من "أورفة"، وأعيد بناء الأسواق عام 1885م [17]. وتشغل الأسواق مساحة 11250م^2، وتوفر فرص عمل لشريحة واسعة من السكان. ولا تزال تحتفظ بطابعها التقليدي الأصيل منذ إنشائها حتى الآن. ونظراً لقيمتها الفنية والجمالية والتراثية فقد تم تسجيلها في مديرية الآثار.

سوق التجار

سوق عكاظ

منظر علوي لسوق خلوف

البوابة العثمانية

منظر للأسواق يُظهر أسلوب ومواد التسقيف

شكل (20): الأسواق التقليدية "السوق المقبي" في دير الزور

تُعرف الأسواق التقليدية اليوم "بسوق الظلام" أو "السوق المقبي" وسبب التسميتين أسلوب التسقيف المميز للأسواق. ويحدها من الغرب "دير العتيق" الذي تمت إزالته عام 1968م لصالح مشاريع التحديث العمراني. كما تحدها دار السرايا العثمانية من الشمال (وتتصل الأسواق بالسرايا بواسطة بوابة عثمانية مميزة تم ترميمها مؤخراً)، وحي "عبد العزيز" من الشرق والشارع العام من الجنوب [18].

تتميز أسواق دير الزور التقليدية بتخصصها، فيحتوي كل سوق على صنف معين، ويحمل السوق اسم هذه السلعة، مثل سوق الخشابين لبيع المستلزمات والأثاث الخشبي، وسوق الحبال، والمخصص لبيع الحبال، وسوق العطارين، والمخصص لبيع البهارات والتوابل، وسوق التجار لبيع الأقمشة، وسوق الحدادين وغيره من الأسواق الأخرى المرتبطة فيما بينها. كما يحتوي السوق على عدد من الخانات والحرف اليدوية التقليدية، شكل (20).

يشكل النسيج العمراني للأسواق التقليدية ذو التخطيط الشبكي وحدة عمرانية غاية في الدقة والتنظيم، حيث يتكون من عدد من الأسواق الخطية النوعية، حيث تصطف المحلات التجارية بواجهاتها الحجرية ذات قوس نصف دائري على طرفي المحور التجاري، ويغطي المحور سقف أسطواني ذي عقد مدبب تتخلله الأعصاب التي تعطي المحمر منظوراً معمارياً داخلياً مميزاً. ومن الناحية المعمارية والفنية فقد استطاع "السوق المقبي" في دير الزور أن يعكس الإبداع الإنشائي للمعمار من خلال اتخاذ القرار الإنشائي باستخدام مواد وتكنولوجيا البناء المتوفرة والتي استطاع من خلالها تحقيق العلاقات الفراغية المطلوبة [18]، شكل رقم (21).

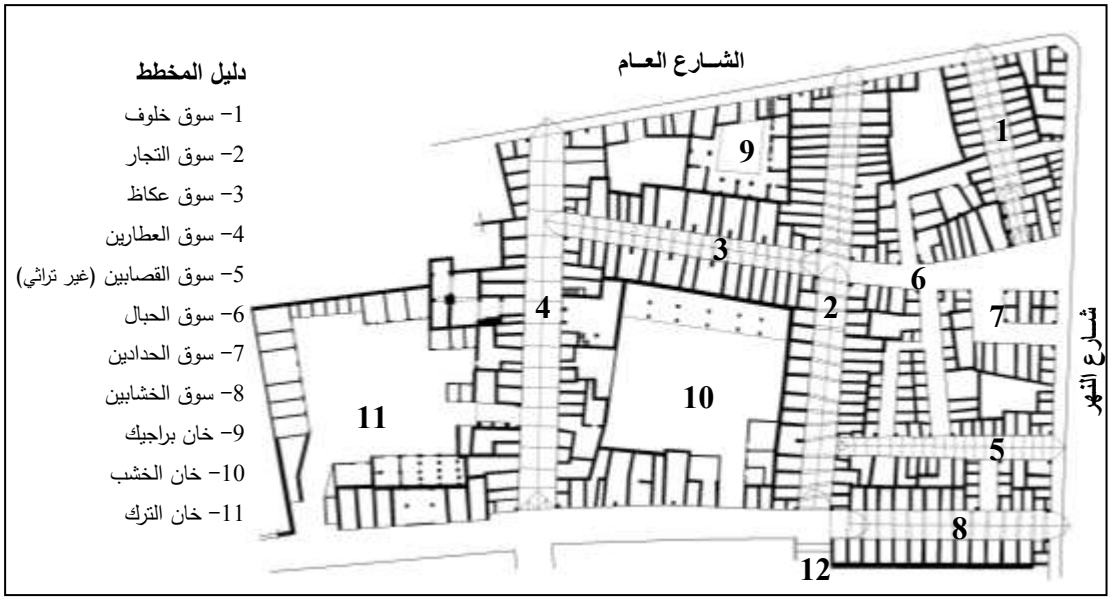

شكل (21): مسقط أفقي للأسواق التقليدية في دير الزور مع أسلوب تسقيفها

تشكل الأسواق التقليدية جزءاً من قلب المدينة وتمثل أحد شرايين الحياة التجارية والاجتماعية اليوم، فضلاً عن كونها إرثاً ثقافياً محلياً ذا طابعٍ عمرانيٍ ومعماريٍ متميزٍ يعكس قدرة المعمار آنذاك على صياغة مفردات معمارية وأنماط بنائية وفقاً لمعطيات المحيط، كما أنها ثروة تمثل قيمة حضارية تضاف إلى التراث الإنساني العالمي. ولا تزال هذه الأسواق التقليدية تقاوم التحديات بل وتلعب دوراً اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً هاماً في حياة المدينة، كما تشكل هذه

الأسواق معالم حضارية مما يجعلها مقصداً للسياحة الثقافية وهذا يؤمن مورداً أخراً يسهم في بقاء هذه الأسواق واستمراريتها. يمثل الشكل رقم (22) بعض الحرف اليدوية التقليدية في أسواق دير الزور "المقبية" كما يسميها السكان.

حرفة صياغة الفضة المهددة بالانقراض — حرفة الحدادة لتصنيع مستلزمات الريف — "مزعل" أشهر صانع لدلال القهوة العربية

"الفرواتية" — صناعة مستلزمات الريف — المصنوعات الخشبية واشهرها "المخمر" لحفظ الخبز

شكل (20): الأسواق التقليدية "السوق المقبي" في ديرالزور

كما تعتبر صناعة الفخار من أقدم وأهم الحرف التقليدية التراثية في محافظة دير الزور، والتي تعكس براعة صانعها وذوقه من خلال دقة انحناءات المنتجات الفخارية وصقلها وتناسق أبعادها ودرجة نقاوتها من الشوائب وجمالية زخارفها والألوان الداخلة فيها.

النتائج والمناقشة:

1- واقع الأسواق التراثية في سورية وسبل الحفاظ عليها

تتعرض **الأسواق التراثية** في العديد من المدن السورية للكثير من المشكلات، والتي تؤثر سلباً سواء على الصورة البصرية أو الحالة المادية أو عليهما معاً. وأياً كان نوع هذه المشكلات التي تتعرض لها، فهو بالتالي يؤدي إلى ضياع وتخريب وتدمير هذا التراث سواء على المدى القريب أو البعيد. ولتجنب هذه النهاية الحتمية وللحفاظ على هذا التراث لا بد من تحديد أسباب التدهور، والمشكلات التي تعاني منها. ومن أهم المشكلات هي غياب الصيانة والاختلاط الوظيفي وضعف التخديم، بالإضافة إلى بعض الصعوبات الإدارية والقانونية.

2- جهود الرعاية الحكومية في مجال تنشيط السياحة الثقافية وتنمية الصناعات اليدوية

تعمل وزارة السياحة حالياً على إحداث المجلس العالي للحرف التقليدية يضم المعنيين من جميع الجهات العامة والخاصة، ويهدف لمتابعة الإجراءات الكفيلة للنهوض بالصناعات التقليدية اليدوية والارتقاء بها ورفع قدرتها التنافسية في الأسواق المحلية والعالمية. وسيكون لها دور مهم في الحفاظ على المهن اليدوية. كما أحدثت عدة أسواق للحرف اليدوية في (دمشق "التكية السليمانية" وفي حلب "خان الشونة" وفي حماه "خان رستم باشا").

3- التحديات التي تواجها صناعة الحرف اليدوية التقليدية في سورية

إن الاهتمام بتطوير الصناعات والحرف اليدوية التقليدية يسهم في معالجة بعض المشاكل الاقتصادية، وتنشيط السياحة الثقافية في سورية، وتوفير فرص العمل والحد من مشكلة البطالة. ويمكن أن نستعرض بعض القطاعات الصعوبات والعوائق التي تواجه الصناعات اليدوية التقليدية وتحول دون نموها، منها:

- تعدد الجهات الوصائية على النشاط الحرفي في سورية (سياحة، اقتصاد، صناعة، اتحاد حرفيين، غرف سياحة، جمعيات أهلية ..إلخ) مما يؤدي إلى غياب المرونة والتنسيق على المستوى الوطني.
- اضطرار الحرفيين إلى العمل في المصانع الآلية، وهجر حرفتهم التقليدية.
- عدم وجود تسهيلات مالية، وصعوبة التمويل.
- عدم وجود مراكز التعليم والتدريب للحرف اليدوية.
- ضيق الأسواق المحلية، وصعوبة تسويق المنتج اليدوي.

4- إستراتيجية تطوير قطاع الصناعات اليدوية التقليدية في سورية

الحرف التقليدية من أهم عناصر الجذب السياحي في سورية ومكون رئيسي للتراث الحضاري الذي يؤكد على الهوية الحضارية والثقافية وإن المحافظة على هذه الحرف وتطويرها من النشاطات المهمة والرئيسة ضمن برامج عمل التنمية السياحية، بغية تحقيق الدعم الاقتصادي وخلق فرص العمل للمجتمعات المحلية. ولا يمكن النهوض بالصناعات التقليدية وتحقيق التنمية الذاتية إلا في ظل سياسات ملائمة تعمل من ناحية على توفير الآليات اللازمة لتوجيه تكيف هذا القطاع الحيوي من الاقتصاد القومي في ظل الظروف القائمة وجهة سليمة، وتعمل من ناحية أخرى على حشد وتوجيه الموارد والجهود بما يتفق مع تعظيم الاستفادة من هذا القطاع في التنمية الذاتية للمجتمعات المحلية، والإستراتيجية المقترحة لتطوير قطاع الصناعات اليدوية في سورية، تشمل:

1- **تسجيل وتوثيق الصناعات الحرفية اليدوية** في كل المحافظات السورية كخطوة أولية ضرورية للحفاظ على هذه الصناعات. ووضع قاعدة بيانات وبنك معلومات للحرف التقليدية في سورية، والتواصل مع الهيئات الدولية المعنية لتوفير الخدمة الاستشارية المجانية للحرفيين، والمحافظة على أصالة هذه الحرف، وإحياء المهن القديمة والأصيلة المهددة بالاندثار، كصناعة السيف الدمشقي.

2- **تخصيص أسواق للصناعات التقليدية** في كافة المحافظات السورية، دعماً لهذه الصناعات وبما يضمن توارث المهن عبر الأجيال.

3- **إحداث معاهد متخصصة ومراكز تدريبية** للحرف التراثية اليدوية، بغية رفع كفاءة العاملين في الصناعات التقليدية من خلال برامج التدريب والتأهيل وتخريج المتخصصين بالمهن اليدوية، ولاسيما الحرف المهددة بالاندثار من أجل الحفاظ عليها.

4- **تأمين منافذ لتسويق المنتجات الحرفية**، والقيام بالدعاية لمنتجات الصناعات التقليدية وذلك من خلال المشاركة في المعارض الدائمة والمؤقتة والخاصة بالمهن التراثية، إضافة إلى إصدار النشرات الترويجية الخاصة بالحرف التراثية وتوزيعها داخل وخارج البلاد.

5- **تشجيع الاستثمار** من خلال إعداد دراسات جدوى مبدئية لمشروعات الصناعات اليدوية الصغيرة التي يكون من المتوقع نجاحها في كل محافظة، وذلك في إطار الجهد الإرشادي الواجب بذله لمساعدة المستثمرين المحليين للدخول في مجال الاستثمار بالصناعات اليدوية التقليدية.

6- تحفيز الطلب الداخلي على الصناعات اليدوية التقليدية من خلال الترويج لها وإظهار فوائدها وصولاً لعملية التعريف بالتراث وتثبيته في ذاكرة الناس، مثل: صابون الغار، وأوعية الفخار، وأطباق القش.

7- **دعم الخامات المستوردة** التي تدخل في بعض الصناعات اليدوية التقليدية المحلية (كالفضة والنحاس والأخشاب والعاج والصدف). واختبار المواد وضبط جودة الإنتاج بالنسبة للمنتجات الموجهة للتصدير.

الاستنتاجات والتوصيات:

1. إن **السياحة** بمعناها العميق، تجسد بوضوح مفهوم الحوار والتفاعل المتبادل بين مختلف الثقافات الإنسانية ومن شأنها أن تساعد على استتباب السلم في العالم، وتساهم في نشر ثقافة التفاهم والوئام بين الشعوب والدول، إلا أن تحقيق مثل هذا الهدف، يقتضي منا كما سبق وأن أكدنا على ذلك فيما سبق، وضع التراث والفن في قلب الحدث السياحي.

2. **تميزت الصناعات اليدوية التقليدية السورية** بالأصالة والدقة والجودة والجمال، وأسهمت في تأكيد الهوية الحضارية والشخصية القومية وتفردت بذوق رفيع عكس ثقافة المجتمع الضاربة في أعماق التاريخ، كما عبرت الصناعات التقليدية عن مرجعية اجتماعية ذات رموز غنية بمضامينها ومحتوياتها، وقد أثبتت تلك الصناعات تميز الحرفي السوري بالحس المرهف، والصبر، والذوق الرفيع، وأناقة التنفيذ، كما أبرزت مهارته في التعامل مع مواد الطبيعة المحيطة به، لكي يصوغ منها إبداعاته.

3. إن **تنمية وتطوير الصناعات والحرف اليدوية،** يقتضي دراسة المنظور الاجتماعي والثقافي والتراثي والاقتصادي لهذه الحرف وإظهار جماليتها وقيمها والتأكيد على الهوية الوطنية وإثراء الذاكرة الثقافية من خلال التعريف العلمي بهذا التراث الشعبي، وعلاقة هذه الحرف بالعادات والتقاليد في مجتمعاتها، ضمن دعوة لإعادة استخدام المنتجات اليدوية كحاجة حياتية، علاوة على توظيفها في المجال السياحي لزيادة الدخل الوطني للدول، وتوفير فرص العمل للشباب المبدع.

4. تتعرض **الأسواق التراثية** في العديد من المدن السورية للكثير من المشكلات، والتي تؤثر سلباً سواء على الصورة البصرية أو الحالة المادية أو عليهما معاً. وأياً كان نوع هذه المشكلات التي تتعرض لها، فهو بالتالي يؤدي إلى ضياع وتخريب وتدمير هذا التراث سواء على المدى القريب أو البعيد. ولتجنب هذه النهاية الحتمية وللحفاظ على هذا التراث لا بد من تحديد أسباب التدهور، والمشكلات التي تعاني منها.

5. تشكل **الأسواق التراثية** التقليدية جزءاً من قلب المدينة وتمثل أحد شرايين الحياة التجارية والاجتماعية اليوم، فضلاً عن كونها إرثاً ثقافياً محلياً ذا طابع عمراني ومعماري متميز يعكس قدرة المعمار آنذاك على صياغة مفردات معمارية وأنماط بنائية وفقاً لمعطيات المحيط، كما أنها ثروة تمثل قيمة حضارية تضاف إلى التراث الإنساني العالمي. ولا تزال هذه الأسواق التقليدية تقاوم التحديات بل وتؤدي دوراً اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً هاماً في حياة المدينة، كما تشكل هذه الأسواق معالم حضارية مما يجعلها مقصداً للسياحة الثقافية وهذا يؤمن مورداً أخراً يسهم في بقاء هذه الأسواق واستمراريتها.

6. يمكن أن تسهم **الهندسة المعمارية** في الحفاظ على المهن اليدوية التقليدية بشكل كبير، من خلال تخصصها في ترميم وصيانة الأسواق التراثية، واستخدام بعض منتجات الحرف اليدوية التقليدية كالفسيفساء والأبلق والحديد المشغول والثريات والنحاسيات الأخرى في المباني الحديثة ذات الطابع التراثي، كما يمكن أن تسهم عملية الحفاظ وترميم المباني التراثية في الحفاظ على استمرارية الحرف اليدوية من خلال الاعتماد عليها في عمليات استكمال النواقص من المبنى الأثري كأعمال القاشاني والفسيفساء والعجمي.

7. يمكن أن تسهم **كليات العمارة وكليات الفنون** الجميلة في الحفاظ على المهن اليدوية التقليدية، من خلال تزويد الجانب الإبداعي وتزويد هذه الحرف بالأشكال والتكوينات والزخارف المبتكرة، واستخدام الحاسوب في التصاميم الجديدة بهدف الارتقاء وتطوير هذه الحرف اليدوية.

المراجع:

1- الفياض، محمد؛ حمود، ماجد. *الحرف التقليدية في سورية*، الاتحاد العام للحرفيين: مكتب الثقافة والإعلام، دمشق، سورية،2011، 582.

2- الأنصاري، رؤوف, *توظيف الصناعات والحرف اليدوية في المجال السياحي*، 2011، 10 نيسان2013. <http://www.facebook.com/notes/raouf-al-ansari>

3- منظمة السياحة العالمية. المدونة العالمية لآداب السياحة: من أجل سياحة مسؤولة، تقرير صادر عن منظمة السياحة العالمية، 1996، 27.

4- الموسوعة العربية العلمية، *السياحة*، 2009، 10 نيسان 2013. <http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B3%D9%8A%D8%A7%D8%AD%D8%A9>

5- باتان، فاليري، *السياحة الثقافية بين حماية التراث والنمو الاقتصادي*، ورشة عمل عمريت وطرطوس القديمة، 2006،10 نيسان2013. <http://www.amrit-syria.com/News/valery_Patin_Syria.htm>

6- World Tourism Organization, "UNWTO Tourism Highlights, Edition (2007)", accessed 2008-03-29, (2007).

7- World Tourism Barometer, (2008) UNWTO World Tourism Barometer (2008)" .Volume 6 No. 2, accessed 2008-08-01.

8- الحجلي، بشار. *الحرف والصناعات التقليدية*، مقال منشور في جريدة الثورة 2012، 10 نيسان2013. < http://thawraonline.sy/index.php/good-morning-syria-list/189-2012-01-22-10-30-20>

9- عبدالله، عمر. *تفاعل الحرف التقليدية والسياحة على المستوى الثقافي والتراثي والاقتصادي*،2009، 10نيسان 2013. <http://historicalcities.wordpress.com>

10- بولاد، توفيق. تاريخ الفنون والصناعات الدمشقية، إلياس بولاد للنشر، سورية، 2003،.

11- الأطرش، ريم. الحرير في سورية، لواء اسكندون، سورية ولبنان، منشورات وزارة الثقافة السورية، سورية، 1996.

12- شبكة سوريا الأولى، الموزاييك اليدوي من أقدم الحرف الدمشقية،2012، 10نيسان 2013 <http://www.1sy.info/total/archives/5774>

13- العبد،علام. *أرمناز الموطن الأول لصناعة الزجاج و الفخار في سورية*، مقال منشور في صحيفة تشرين 4/9/2012 ، 10نيسان2013. >http://www.tishreen.news.sy/tishreen/public/read/266804<

14- KEENAN, B., Damascus: Hidden Treasures of the Old City", Thomes and Hudson, London, 2000, 224.

15- الشهابي، قتيبة. *أسواق دمشق القديمة*، وزارة الثقافة، سورية، 2000،530.

16- حريتاني، محمود. *حلب: أسواق المدينة*، شعاع للنشر والعلوم، 2006، 223.

17- عياش، عبد القادر. *حضارة وادي الفرات، القسم السوري: مدن فراتية*، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سورية، 1989،428.

18- عطية، أحمد. *الأسواق التقليدية في مدينة دير الزور: سبل التطوير والارتقاء*، بحث دبلوم غير منشور، جامعة حلب، سورية.